المحاضرة الثالثة:

وظيفة الأدب:

تحدث الفلاسفة منذ القدم عن وظيفة الأدب،فقد قام أفلاطون في جمهوريته الفاضلة بطرد الشعراء منها وقيل بعضهم ، ووضع لهم شروط للدخول إليها:

- أن لا تتعارض قصيدته مع ما هو شرعي وخير وحق .
- أن تعرض القصائد على مجموعة من القضاة قبل أن يطلع عليها الجمهور .

إن الشعراء بالنسبة لأفلاطون هم مجموعة من المقلدين المزيفين الذين يبتعدون عن الحقيقة والمنطق والعقل ، ومنه فوظيفة الشعر **تتسم بالزيف والبعد عن الحقيقة** بثلاث درجات .

أما تلميذه أرسطو فيرى أن الشاعر لا ينقل ما هو كائن وإنما ما يمكن أن يكون، فالطبيعة في نظره ناقصة والفنان يعوض ما فيها من نقص .ومنه فوظيفة الأدب عنده هي **الإبداع والابتكار**. ويرى أن المأساة تؤدي إلى حدوث ما يسمى بـــ"التطهير "لأنها تثير عاطفتي الشفقة والخوف، فينتج عنها رد فعل لدى المشاهد فيتجنب الخطأ.

أما هوراس الروماني فيرى أن وظيفة الأدب **تكمن في المتعة والفائدة**، في كلامه عن وظيفة الشعر إذ قال "إن غاية الشعراء إما الإفادة أو الامتاع، أو إثارة اللذة وشرح عبر الحياة في أن واحد"، وإذا عدنا إلى النقاد العرب القدامى فنجدهم قد حددوا عدة وظائف للأدب منها: الدفاع عن القبيلة، هجاء الأعداء ...إلى جانب المتعة.

وأما في العصور الوسطى، حين سادت العالم الحضارة الإسلامية نجد أن العرب لم يكونوا يهتمون بالوظيفة التي عنى بها أفلاطون وأرسطو وهوراس، ولم يحاولوا أن يحددوا له وظيفة غير الوظيفة التي كان يؤديها الشعراء والأدباء آنذاك، ولم يفكروا في وظيفة كانت تؤديها الأنواع الأدبية التقليدية التي كانت معروفة لديهم، بل إنهم يرون في الشعر **عطاء عبقريا وسراجا وهاجا يستنير به الناس في حياتهم**. وقد كان العربي يشيد بالبراعة اللغوية حيث **يتمتعون بها تمتعا تاما**، ويسابقون إليها إلى أقصى حد. كما أنهم لا يأخذون الكثير مما يقوله شعراؤها مأخذ الجد، ومن ثم يكتفون **بالمتعة** التي يثيرها الشعر فيهم، بالإضافة إلى المنفعة الثانوية التي يجدونها في الإعجاب بالمآثر، وفي التغني بالقيم التي يعتزون بها من مروءة وكرم ونجدة وشجاعة.

ولما ظهرت **الفلسفة الوضعية أو التجريبية** في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، تأثر بها المشتغلون في الأدب، وكثر الحديث عن **الوظيفة الاجتماعية** التي تعد وظيفة رئيسية للأدب. وأن هذه الوظيفة الأدبية تعبر عن الأحوال الاجتماعية من الآلام والسرور والمشكلات والأفراح، وعما يجول في القلوب والنفوس.

وبعد ظهور هذه الفلسفة الوضعية ظهرت المدرستان العظيمتان في سماء الأدب، ولعبتا دورا فعالا في تحديد الوظائف الأدبية إلى حد ما. الأولى تعرف بـــ" **المدرسة الواقعية الاشتراكية**" متأثرة بالفلسفة المادية الجدلية، والثانية تعرف بـــ" **الفلسفة الوجودية**". وهاتان المدرستان ترتبطان بالوظيفة الاجتماعية للأدب على الرغم من الاختلافات الكثيرة بينها.

وفي سنة 1967 نشر رولان بارت مقالته "موت المؤلف" La Mort De L'auteur ليقلب النظرية الأدبية المعاصرة رأسًا على عقب، وليضع بذلك أحد المصطلحات البارزة والمؤثرة في فلسفة الجمال والنقد الفني المعاصر. لقد قال بارت "إن النص من الآن فصاعدًا على كافة مستوياته وبجميع أدواته، منذ صناعته وحتى قراءته، يظهر بشكل يغيب فيه المؤلف غيابًا كاملاً"، ويدعو بارت إلى أن نحذف من قاموسنا كلمة "مؤلف" لنحل محلها "الكاتب"Le Scripteur. والكاتب– وفقا لبارت– ليس في داخله "عواطف" ولا "أمزجة" ولا "مشاعر" ولا "انطباعات". لا يوجد لديه إلا ذلك القاموس الضخم الذي يستمد منه كتابة "نشاطًا لفظيًا" لا يمكن أن ينفد أبدًا "فالحياة لا تعرف شيئا سوى أن تحاكي الكتب وما الكتب ذاتها إلا مجرد أشياء مصنوعة من العلامات".

ولعل افتراضات فرويد بان العمل الفني ما هو إلا انعكاس لحياة الفنان وتجاربه النفسية، فإن هذا يلغي تعددية العمل الفني ويجهض إمكاناته التأويلية، وسيفقد العمل الفني قيمته وخلوده في الزمن، إذ تكفينا في هذه الحالة أن نعرف الدلالات السيكولوجية للعمل الفني وعلاقتها بحياة الفنان، فالأفكار التي قدمها بارت حين تأكيده على أن النص الأدبي، من حيث كينونته، متعدد المعاني، بمعني أنه يخضع لشتى التأويلات المتباينة. ويفسر بارت ذلك بأن المعنى الخاص للنص يكون فارغا "المعنى الثانوي للأدب غير ثابت، فارغ، بغض النظر عن أن النص يعمل كدال لهذا المعنى الفارغ"؛ فالدوال متحررة من كل ما يقيدها، تمثل درجة كل الاحتمالات الممكنة.